ولكن...

بانسيه محمد البنا

يناير 2014..

في إحدى الكافيهات المتواضعة حيث تتعالى أصوات الجميع كما لو أنهم في حلبة سباق ويتناثر الدخان مكونا سحابات رمادية تحمل من جوف المرء بعضا، يجلس بضعة شباب يتحدثون في كل شيء واللاشيء لا يختلف منهم واحد عن الآخر كما لو أنهم نسخ مكررة بابتذال، تكتظ النفوس أجمعها بندبات لا علاقة لها بالسن، إننا في زمن لا قواعد فيه ولا ناج من سوئه إلا من رحمه الله..

(ياسين) على سبيل المثال طالب قصير وبدين بعض الشيء، لديه من المكابرة ما يكفي ملء الأرض ويزيد، جاف وحاد الطباع، ينتقد كل من حوله بأسلوب ساخر عابث..

وسط كل ذلك العبث كان هناك استثناء واحد، لوحة فريدة لا سبيل للزمن بتكرارها، قد لا تفهمها ولكنك كذلك لن تستطيع إبعاد ناظريك عنها، (أحمد) طالب في الفرقة الثانية في كلية تربية تلك المرحلة البغيضة حيث تكن عالقا بين "أنت كبرت على الكلام ده" وبين "أنت هتعملي فيها راجل".. لا تستطيع الجزم بما ينتظره من حولك أشخص بالغ عاقل أم طفل يودع آخر خيوط طفولته.. دائما ما يجلس بين أصدقائه وفي داخله يردد بأنه لا ينتمي إلى هنا.. كان أشبه بجرامافون مذهب في عصر التكنولوجيا، نعم في وقت ما كان لا يمكن الاختلاف على قيمته ولا غنى عنه في أي بيت ولكن ذلك الزمن قد ولى وذهبت معه الآذان الراقية والنفوس الصافية، وجوده الآن لا ينفي حقيقة أنه شيء قيم وراق لكنه

في الوقت والمكان الخطأ فحسب، لطالما كان حاضرا بينهم بجسده ليس إلا.. بينما كان شاردا اقتطعه صوت ياسين بقوله:

. إيه يا عم دماغك فين؟!
. أنا معاكوا.. أنا تمام محتاج أنام بس

. حجة كل مرة ما تغيرها طيب عشان بنزهق

أجاب على سخرية ياسين بابتسامة باهتة لا تمت لملامح وجهه ومكنون قلبه بصلة:

. آسفين يا صلاح

فكل ما يريده ألا يترك مجالا واحدا للتبرير والإشفاق، كان ينظر إلى الأشياء بعين قد نطلق عليها عينا ثمانية الأبعاد، إنه يرى الباطن من كل شيء ولم يكتف يوما بما هو ظاهر، قد ينشغل الجميع بتأمل القمر بينما هو يهيم حبا في نجمة ساطعة وحدها بعيدا عن مرمى بصر الجميع، يشعر بالانتماء تجاه كل ما هو فريد وغريب ولا يجتمع الناس حوله كالذباب، قد يتملكه اليأس من رأسه حتى أصابع قدميه في لحظة فيشعر أن النهاية قريبة ومن ثم تداعبه نسائم هواء أكثر لطفا من العالم أو قطرات مطر تعادل برد روحه فيتناسى ماهية اليأس ويشعر كما لو أنه ما رأى حزنا قط.. تأسره البساطة والهدوء لذا نجد أن من هم مثله دائما ما تكن الأمور هنا في عصرنا الحالي أشد وطأة عليهم من ذويهم.. أيقن أحمد منذ وقت طويل بعدم اكتراث من حوله لحاله لذا فقد توقف عن الشكوى حتى وأن كان يعتصر ألما، قرر العيش كمهرج يرقص فوق الأشواك، يمتص دمعاته حتى يموت فوق المسرح ومن ثم يصفق له الجماهير بحرارة كعادتهم ولكنه لن يضطر للنهوض مرة أخرى فقد سقط الإثم عنه وتم إطلاق رصاصة الرحمة ممن سواه..

***

. يا جدعان تعالوا نطلع ع القهوة نغير جو عشان إحنا اتحط علينا في الامتحان ده حطة التنين

هكذا تحدث سيد بلامبالاة متناسيا كل ما هو عادى أهواءه وراحة باله التي لا تقدر بثمن، إنه ذلك الطالب المعروف وسط الجموع ب "الفريزر"، حتما هنالك أسباب منطقية لتلقيبه بذلك، فإنه واحد من هؤلاء الذين لا سعة لهم بالجدية والحزم، يستقبل كل شيء بلا مبالاة، بالنسبة له لا شيء في هذه الدنيا يستدعي البكاء والحزن، يحسده من حوله على تلك الهبة حيث أن الدنيا لا تحتاج سوى القليل من الوعي.. القليل جدا..

أحمد: لا معلش روحوا أنتوا أنا مليش مزاج

ياسين: مالك يا عم مكشر ليه وشايل طاجن ستك امتحان وعدى يعني متكبرهاش وأنت يا عم محمود متبقاش تطلب ورق إجابة إضافي بتخضني على نفسي وربنا..

وكعادة الأمر قابل محمود مزحاتهم بابتسامة باردة لا تكفي لإشباع سخريتهم ولا تختلف كثيرا عن أحمد إلا أن أحمد قد توقف عن محاولة إظهار عكس ما يبطن وأن خالف ذلك أهواءه التي تمقت عباءة الذبول والانطفاء، ما عاد في وسعه سوى الصمت ولا طاقة له بأكثر من ذلك، سايرهم أحمد بقلبه المثقل الذي يردد في كل حين: "اللهم الخلاص"، إنه واحد من هؤلاء الذين تحركهم ضمائرهم، يتنفسون السعي حتى وأن تخلله الفشل وعدم الحصاد لما يرضي، لذا فكان لا يؤلمه سوى ما بذل.. لا سبيل له بتقليل الجهد من ناحية ومن ناحية أخرى لا سبيل له بمرارة الظلم التي اجتاحت فمه منذ لحظة دخوله تلك الجامعة..

بطرافة باغت سيد عالم أحمد الذي يأخذه على حين غرة ممن حوله وقال: أستاذ أحمد تحب تقول أيه في المايك بمناسبة فوزك بجايزة أحلى تكشيرة في المجرة..

. لا يا عم أنا فل والله.. حاولت الصبح اعدي الشارع من غير ما أبص وأسيب القدر ياخد مجراه بس كان نايم ساعتها باين..

ضحك الجميع بعبارات ساخرة ولم يعلم أحد أنها لم تكن بمزحة إنما هي استغاثة وخيط أمل أخير.. إنه وحده في ذلك الأمر.. وحده تماما ومن ثم تعالت الأصوات بداخل رأسه ولم يجد لإحجامها سبيلا.. فقرر الانسحاب فورا..

. أنا هروح بقى سلام

محمود: سلام أيه بس استهدى بالله كده وصلي ع النبي.. ده مجرد امتحان يا أحمد مش نهاية الدنيا ولا مقياس لنفسك أو لسير أقدارك.. ربك وعدك بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا.. وأنت تعبت وعملت اللي عليك فسيب الباقي عليه، كل اللي بيحصل ده مجرد فصل واحد من فصول قصة طويلة عريضة ربك المتكفل بكل دقيقة فيها وعارف ومطلع على كل خطواتك بس بيحبك وبيختبرك ومستني يشوف منك توكل وحسن ظن فيه وفي باقي القصة.. ومسيرها هتظبط وتروق والله بس أنت قول يا رب..

لطالما كان محمود يفضل الصمت لكونه لم يجد نفسه وسط عباراتهم المبتذلة، تؤرقه فكرة توجيه انتباه الجميع إليه حيث لا مفر من تلعثمه وعجز بلاغته وحكمته عن الإفصاح عن نفسها في ظروف كتلك إلا أنه كان يعرف متى يتحتم عليه التدخل، بشكل أو بآخر كان يشعر أن مسئولية العالم تقع على كاهليه فيساعد ذاك وينصح ذاك ويعطي الأمل لآخر متناسيا نفسه.. إنه ذلك الطالب المعروف (بالدحيح) صاحب النظارة المكعبة والملابس المهندمة دائما، من يراه يشعر كما لو أنه قد خلق لأجل العلم ليس إلا.. ينهم الكتب والمراجع كما ينهم الناس أطباق الحلوى، ولكن..

قال ياسين بسخرية أشد وطأة من كونها سخرية فقط مربتا على كتف محمود بشيء من الغلاظة:

. الله.. عظمة على عظمة يا ست.. قول يا عم واشجينا ما أنت طبعا لازم تشوف الدنيا بمبي وأنت عندك شوفير وبتقول بابي ومامي والحياة عندك آخر منجهة وبتطلع الأول كل سنة، ناقص بس تطلع القمر وتبقى جبرت..

قام أحمد بتدخل سريع يضع به حدا لياسين ويمنح عن طريقه هدنة سلام لمحمود الذي لم يجد ما يقوله فاقتطعهما بقوله: سيبك منه يا محمود دة دماغه لحست.. والله الواحد ما عايش إلا بالكلمتين بتوعك دول..

في السابق كان أحمد يتخذ ردود أفعال معادية في مثل تلك المواقف إلا أنه قد اعتاد على تجنب نقاش يؤول إلى اللاشيء، لطالما امتلك أحمد نظرة ثاقبة لكل من حوله وخاصة لما وراء الستار لذا فإنه يعرف يقينا أن كل ذلك ما كان سوى أساليب دفاعية يستخدمها ياسين عبثا كي لا يتحول إلى لقمة سائغة لمن حوله، بينما كان يجاهد لتجنب المرضى فأصبح دونما وعي واحدا منهم، يعامل من حوله كخصوم سواسية.. لقد كانت هي وسيلته الوحيدة لحماية نفسه، ومن ثم استأذن أحمد للرحيل في هدوء..

ها قد هرب من جحيم الخارج وفي قرارة نفسه يعلم أنه في كل خطوة تقربه من بيته هي بمثابة جحيم آخر ولكن أشد وطأة.. وقف أمام أعتاب منزله وتنفس الصعداء كمن يودع آخر ذرات الأكسجين.. فتح الباب بخلسة كي ينجى من تساؤلات معتادة يتبعها قوله المبتذل "أنا بخير" ومن ثم تنتهي بعبارات أشبه بخناجر مسمومة.. رغم اعتياده عليها إلا أنها تؤلم كما لو أنها الأولى..

باغتته أمه كعادة أغلب الأيام بقولها:

قالب وشك ليه

تعبان وهنام

أغرفلك

لا مش جعان

يبين لها بأنه لا يهتم بأي شيء ولكنه كان يردد في جوفه كل يوم متسائلا:

كيف لها ألا تلمح ذلك الخوف الذي يبتلعني، ألا تنصت لما عجز لساني عن الإفصاح به.. كيف لي أن أكن أمامها كمن أتى بلا مسائلة وفي قلبه قد اجتمعت الحاجات كلها.. كيف لي أن احتمل تلك الوحدة وأمضي هكذا بلا رشاد وعون..

ما عاد لديه شغفا للدراسة كالسابق إذ أنه ظل يبذل بجد متفاني في أرض أحلامه اثنتى عشرة سنة كي يستطيع الالتحاق بكلية التجارة الإنجليزية، قد يتعجب البعض كونها ليست بكلية مرموقة في نظر الأغلبية إلا أنها كانت كفيلة بإيصاله إلى ما يريد ويرضى، كما أنه قد سئم حد الإعياء تلك المناهج المليئة بكلام مبتذل أبكم يحفظه كما القرآن كي يتقيؤه في ورقة عقيمة لم تكن كافية يوما لتحديد مستقبل أحدهم ولكنها مصر!! لم تجر الأمور كما خطط لها، لم يتوقع يوما ذلك الخبر الذي جاءه كالصاعقة ليلة ذهابه لتسجيل رغبات الكليات، أخبرته أمه بأن أباه قد حرمه من تلك الأموال المخزنة لأجل يوم كهذا بلا سابق إنذار، كان التحاقه بما لا يحب كضربة في الرأس ومن يومها ينزف رأسه، في ذلك الحين قام أحمد بتنازله الأول ومن ثم ما عاد يميز بين الصواب والخطأ، تشابهت الطرق في عينيه وتحولت حياته إلى سلسلة من التنازلات وما عاد في وسعه إصلاح الأمر، كانت الخطوات بالنسبة له فيما لا يريده كالمشي على الجمر يوقن بداخله أنه ما من سبيل لإكماله حتى

النهاية ولكنه يكمل على أي حال كنوع من الفضول ووسيلة عبثية لإرضاء ضميره، لا يملك ماضيا يحمل له طفولة مقبولة، بحوزته حاضرا لا يملك لاحتماله سبيلا والمستقبل في عينيه كثقب اسود يحمل المرء إلى المجهول ويختبئ كطفل مرتجف في عباءة اليوم، وبالرغم من كل ذلك كان يستخدم الدراسة كدرع للهروب من واقع حياته والاستفادة مما عداه وربما لمواجهتها ولكن بسبيل أقل وطأة، للتخفيف من حدة أصوات صراخ أمه وأبيه وتجنب المزيد من الوعي ذاك الذي يدفعه إلى الحافة يوما بعد يوم، كان بيته كحال معظم البيوت المصرية التي ينقصها من يستحق لقب "الرجل" فتقم امرأة تحتمل من مجتمعها لقب "ناقصة عقل ودين" بكلا الدورين؛ الأم والأب إلى جانب دورها في العمل، كان يعاني من غياب أمه التي تنغمس في أهوال الحياة وأعبائها التي لا ترحم، كانت كساقية لا تتوقف عن الدوران، تعمل ليلا ونهارا وتنم بالكاد ثلاث ساعات، إن أراد البعض اتخاذ مثالا للقوة ستكن الجبال هي التشبيه الأمثل إلا أن أمه قد فاقت ذلك الحد بكثير، فلا ينف أحد حقيقة أن الجبال معرضة للسقوط والتفكك وذلك لا ينطبق على والدته.. على الأقل حتى الآن..

ما كان في وسعه اللوم ولو بمقدار ذرة ولكنه كذلك لم يستطع التوقف عن النحيب عند حاجته إليها، لم يستطع أحمد حتى الآن فك شفرات علاقته بأمه لا يعلم سوى أنه يحبها ولا يجد للعيش دونها سبيلا إلا أنهما كانا بمثابة عود كبريت بجانب قنديل مشتعل بنيران ملتهبة، شمس وقمر، لا سبيل لالتقائهما عند نقطة اتفاق، لم تكن تعرف أي شيء عن وليدها، ما يحب وما يكره، ما يريد وما يعاني، لطالما كانت هزائمه وانتصاراته تمتلك ذات اللون في نفسه وفي عينيها، تراه شخصا فارغا قد سوّلت عليه نفسه ولا يملك للعيش بتلك الحياة سبيلا مادام على ذلك الحال، قد يبصر المارين ما به ولكنها لا تبصر سوى كونه بمثابة ابتلاء الله الذي لا فرار منه، تقوم بدورها كاملا في رعايته.. إنها غريزة

الأم.. إلا أن ذلك لم يشمل عناقا واحدا.. لم يشمل حديثا حانيا يحتضن يومه... كلما حاول شرح نفسه كانت محاورتها أشبه بدائرة ذات نقطة مركزية واحدة وأقطار محدودة أينما ذهب سيعود إلى ذات النقطة، ربما يكمن الأمر وراء حقيقة أنها كانت تبصر به والده كما لو أنهما وجهان لعملة واحدة.. تقحمه في مقارنة عبثية فتجعل له من بغض والده بعضا ومن نبذه الكثير.. تحتم عليه احتمال عبء إثم لم يقترفه وبغض يفوق احتماله.. ولكنه اعتاد على أية حال.. كان يربت على صدره بلطف في كل حين كمن يحاول الثبات عبثا لعبور يوم آخر مرددا بلا توقف: "لا بأس"، بينما كان قلبه يفيض بكل بأس.. أما عن السعادة فهي لا تتعدي حدود رأسه المثقل حيث يمكنه خياله الجامح الأشبه بآخر ذرات الأكسجين من الإبحار لآلاف الأميال، إلقاء النكات، إعادة صياغة مشاهده اليومية كما يحب ولقاء من يريد وقتما يريد بينما هو جالسا على أريكته.. كان لخياله ذات المفعول الذي تمتلكه المهدئات، لوهلة سيشعر كما لو أن حياته تمثل سطرا في هدنة ومن ثم يزول الأثر سريعا ويبقى الحطام..

إن سأله أحدهم كيف هو الأب فلن يعرف، فقد كانت الدنيا أبخل من منحه ذاكرة أقوى لتذكر طفولته، كان يود لو يعود إلى الوراء قليلا ليعرف كيف هو عناقه لمرة واحدة،، يمقت اسمه المتبع بلقب عائلة لا يمت لها بصلة ولم تكن سوى نصيبه من جحيم الأرض، لم يعرف كيف هو الأمان والحنان سوى من بيت واحد احتضنه كما لم يفعل أحدهم؛ بيت جده وجدته، هدية الله التي استعادها مبكرا.. مبكرا جدا.. تركه الجميع في الطريق كنبتة بلا جذور وبلا أرض في دنيا لا تعرف سوى الدهس على من هم مثله!! أكثر ما يؤلمه كونه يصطدم كل يوم بحقيقة واحدة تخبره بأنه لا مفر.. ليس هنا.. لا سبيل له بطيف سلام على تلك الأرض.. يمتص الجميع دماءه بلا رحمة كبعوضة تمتص غذاءها حتى الشبع ولا تعبأ إن كانت تلك هي القطرات الأخيرة أم لا.. إنها الفطرة البشرية التي تدفع المرء الخدوم إلى حافة الجفاء والتخلي عن إنسانيته

إن لزم الأمر.. كان غريبا أينما ذهب ولسبب أو لآخر لا يعجب أحدا.. لا زال يصارع تلك الأصوات التي يرتفع صداها بالليل حيث تزاوله نفسه لإنهاء الأمر وصنع رصاصة رحمة بيديه .. بشكل أو بآخر كان يجد السبيل للتملص من نفسه في الصباح ولكن كانت لساعات الليل الكلمة الأخيرة حيث ترتطم في وجهه هزائمه واحدة تلو الأخرى.. يبدو أنه للوحدة مواقيت محددة تقتنص بها من لا تشرق الشمس في قلوبهم حيث ترتسم عليها آثار أقدام كالحفر في الصخر تلك التي عجز الوقت عن محو آثارها.. تُرى بأي إبداع خلق الله الانطفاء والاشتعال.. بأي إبداع خلق ذلك الألم..!!

تمر الأيام ويزداد صمته يوما تلو الآخر، لا فرق لديه بين الأمس، اليوم والغد وما يليهم، مجرد أيام تحمل تواريخ مختلفة وحسب، ينقسم داخله إلى نصفين؛ نصف يريد البقاء بعين مغلقة حتى ضوء القطار والآخر يتمنى لو يضع الله في طريقه زهرة تغنيه عما يقدم عليه..

لاحظ من حوله اختلافا بارزا في شخصيته، حديثه ونواياه ولكنهم لا يجدون تفسيرا بعينه ولا يعبأون على أية حال ولكنهم البشر؛ تواقون للتمحص في كل شي عوضا عن الانشغال بإصلاح أنفسهم...

ياسين: أيه يعني مش عوايدك تطول في القعدة..

أحمد: يعني كده مش عاجب وكده مش عاجب يا عم ياسين

ياسين: لا يا عم مقولناش حاجة

بلا مقدمات اقتطع حديثهم وقال بنبرة حادة يتخللها رجاء حنون:

لازم تعرفوا أن الدنيا دي أتفه من أننا نشيلها على محمل الجد ولو للحظة.. العمر قصير والقلب مش حمل زعل عمال على بطال.. عيشوا اللحظة واليوم بيومه.. وقدروا النعم قبل زوالها.. خليكوا سند لبعض

وهونوا الرحلة عشان تعدي لأنها قاسية بما فيه الكفاية مش هنبقى إحنا والزمن..

لم يترك لهم مجالا للسخرية واستأذن للرحيل وقال بعين تحمل دمعات متحجرة "أشوفكم على خير".. كان يود لو يحتضنه أحدهم، لو يتشبث به أي شيء ويكن حاجزا بينه وبين أصوات رأسه الصاخبة ولكنه يعلم بأنه ما من فائدة على أية حال.. كل شيء ما هو إلا خطوات باخسة تقربه إلى قدره.. لقد كان يودع الأشخاص والأشياء، ينظر إلى السماء بتمعن وفي جوفه يعلم أن اللقاء قريبا، يستشعر قلبه نسائم الهواء المتلاطمة على جبينه وترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة للمارين ووحده الله يعلم ما خفي من الأمر، يراقب من حوله كمن ينظر إلى آخر الشيء، يتعمد الإكثار من النصح والعون، قام بإزاحة كل ما عدى ذلك من خلافات وغيره حيث إنه لم يترك لعقله مجالا للتذمر ولا لندبات قلبه سلطانا عليه، إنه لا يريد سوى الرحيل مطمئنا بأنه لم يترك غصة واحدة في قلب أحدهم ولو دون قصد، يريد أن يذكره من حوله بالخير ليس إلا.. يبدو أنه على حافة قراره المنتظر...

عاد إلى بيته، سأل أمه بنبرة حانية عن أحوالها رغم علمه بأنه لن يسمع ما يرضيه ولكن لا بأس تلك الليلة، دخل غرفته وأغلقها بإحكام.. ينجرف في تخيل المشهد كاملا كما لو أنه قد حدث من قبل وجاء هو فقط ليجسده، قرر أن يطلق سراح ما في مكنونه إلى العالم للمرة الأولى والأخيرة..

لم يكن يعلم ماذا سيكتب أو بمعنى أدق كان ما به أعظم وأعتى من بضعة كلمات على ورقة بكماء تشاهد الضحايا في صمت، واكتفى بقول: لقد حاولت.. صدقوني ما وجدت حتى الآن في نهاية كل مطاف وطريق مشيته بأقدام حافية بلا سبل وقاع كل بئر تحملت به عناء المجهول سوى حقيقة واحدة وهي أنه لا فائدة، مهما حاولت، أينما ذهبت وكيفما بدأت، لا فائدة.. بالنسبة لي؛ لقد سقط الإثم عني منذ هذه اللحظة فلا يلومني

لائم، ما عاد هنالك من يعبأ ليصغى وما عاد هنالك ما يعود لي؛ ليس هنا.. أقسم أنني قد حاولت..

أمسك بيديه مقبض النافذة، أدارها كما لو أنها انطواء للعوالم أجمع، ثم أطلق نظره إلى السماء ولكنه لم يطل الأمر تلك المرة فقد كان يعرف وجهته...

في تلك اللحظة باغته صوت آذان الفجر بقول: "الله أكبر".. للحظة تقلصت الدنيا بعينيه وتلاشى كل شيء حيث انسابت أحرفه كما الماء بين ضلوعه وأزالت غبار أسبابه التي جعلته كالمغشي عينيه، استشعر ما سمعه كما لم يفعل من قبل، شيء ما قد جذبه بعيدا عن حافة النافذة، شيء بداخله لا زال يريد لنفسه نهاية أخرى تليق بمن هم مثله، هنالك صراع بين امتنانه لما حدث وروحه التي تتوق إلى النجاة، لا يعرف ماذا يفعل.. ما الذي ينتظره في حياة قد بعث إليها مرة أخرى بعدما قد أعد العدة للرحيل، توضأ وصلى الفجر باكيا مرتجفا وكعادة الحال دعا بذات الشيء؛ الخلاص، يتزاحم بداخله الشيء وعكسه.. كانت الجدران كما الكمائن حيث شعر بأنه يتنفس شيئا لا يشبه الأكسجين فقرر انتهاز ساعات الليل المتأخرة في الاختلاء بالشوارع الخالية ونسائم الهواء الباردة النقية التي تخلو من عوادم السيارات والأنفاس المكتظة، خطر على باله محمود الذي لم يأت اليوم إلى الجامعة على غير عادته، حدس قوي بداخله يخبره بضرورة الذهاب إليه، ذهب إلى منزله واسترق النظر إلى نافذته حيث اعتاد محمود على السهر لأوقات متأخرة منصبا رأسه في الكتب ومن ثم جحظت عيناه، توقفت الدقائق والثواني كمشهد سينمائي عندما لاحظ شيئا معلقا في النافذة، شيء يتدلى ويتأرجح للوراء وللأمام، إنه محمود ملتفا حول عنقه حبلا غليظا لم يكن بغلظة ما يحمله قلبه!!

***

كان وقع ذلك المشهد على أحمد كمن أصابه البرق بلا رحمة، لم يشعر بأطرافه فما شعر سوى بارتطامه على الأرض ولا سبيل لدموعه بالهطول، ومن ثم أطلق صرخة لم يتنفس العالم من بعدها.. لم يكن في وسعه

التفكير، بلا هدى اتجه إلى بيته بخطوات بطيئة ثقيلة، لم يكن يكاد يحمل نفسه، لم يستطع فتح الباب فلا سبيل له بأصابعه المرتعشة الباردة كما الثلج، سمعت أمه صوت حشرجة المفتاح في الباب، نظرت من العين السحرية فوجدت من يستند برأسه إلى الباب، فتحت وقبلما يتفوه بكلمة واحدة اقتطعها صوت أحمد قائلا بانكسار "مفيش حاجة تعبان وعايز أنام"..

قام بإلقاء نفسه تحت الماء البارد رغم عدم احتمال جسده لمثل تلك البرودة حتى في فصل الصيف، كان يريد ما يشغله عن ذلك الألم الذي يشبه وجع الأسنان ولكنه في روحه، قام بالتقوس على نفسه كما الجنين محاولا النوم وإيجاد مفر عله يستيقظ على رنين هاتفه باتصال من محمود ولكن بلا جدوى.. يفكر بصمت صاخب في كل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، يحاول استعادة أيامه مع محمود فلا يذكر علامة واحدة يبين منها نهايته، ظل على ذاك الحال حتى الصباح، ومن ثم اقتطع كل ذلك صوت بداخله لم يسبق له بسماعه، صوت كان كفيلا لنهوضه كمن لم يذق الماء قط وربما كمن مات من فرط الألم وتم بعثه لأجل شيء ما، لا يعلم سوى أنه هنالك مهمة جديدة قد اقتحمت حياته وأنه ما من سبيل للتوقف حتى إتمامها!!

***

إننا كما الجميع من حوله اكتفينا بالظاهر، منا من انشغل بالحقد فضلا عن السعي لبلوغ قمته، منا من انشغل بما لم يجيد سواه؛ التنمر والسخرية.. هنالك اعتقاد سائد كما لو أنه إقامة حد لا رجعة فيه بأن الطالب المتفوق لا حيز بداخله لما هو دون العقل، لا يشعر، لا يتألم، لا يحزن، ولا يعبا بشيء عدا ما هو من ورق ولكن لم يبذل أحدهم جهدا للتفكير في باطن الأمر ولو بمقدار ذرة، لم يخطر على بالهم لمَ يفعل ذلك وكيف وبأي ثمن.. يظن البعض أن محمود ما هو إلا آلة مبرمجة، شيء

من حديد، إلا أنه في حقيقة الأمر كان كل ما حوله مصمما بإبداع لدفعه لذلك الكرسي واحتضان ذلك الحبل كما لو أنه طوق نجاة مزينا بأكاليل من ورد..!!

"يا أيتها النفس المطمئنة.."

لم يكن عزاؤه بالأمر الجلي، كان يعج بمن يحركهم الواجب فقط ليس إلا.. رحل غريبا كما عاش غريبا.. يجلس أبواه كمن تناسى سقاية زهرته وأتى باكيا بعد ذبولها، ترتسم على وجهيهما علامات ذهول وتساؤلات لا يودان الوصول إلى إجاباتها.. ينظر أبوه إلى السقف نظرة فارغة بينما تعتصر أمه ألما لما آلت إليه حياتها وما جنت به على وليدها، لوهلة أصبحت المكاسب والمصالح التي لطالما احتلت الأولوية في أعينهما كورقة بالية يعبث بها الهواء.. كان كل شيء رتيبا أشبه بطريقة سير المصالح الحكومية في مصر..

ولد محمود وسط عائلة ارستقراطية لم يسبق له أن شعر في داخله بالانتماء إلى قوانينها حيث تحل لديها الأعمال والأشغال في المرتبة الأولى، لا تعبا بما يريده الفرد وبما يتطلع إليه فلا شغل لهم سوى بما يجب، بما يملأ البنوك ويجلب من السلطة والجاه ما هو في حدود السماء وذلك بالطبع لا ينطبق على مواهبه الفذة في الرسم والكتابة ورغبته العارمة لتعلم الموسيقى، يرون أن عبارات مبتذلة مثل كيف حالك، هل أنت بخير وغيرها ما هي إلا هراء لا حيز لهم به، بينما كان محمود لا يبصر نفسه سوى وسط الأحياء البسيطة التي تحوى أرواحا من ذهب؛ كانت عائلته تنتحب كما الأسد الذي قد أنجب قطة، دائما ما يريدون المزيد والمزيد، مهما فعل فلن يستطيع نيل إعجابهم أو تلقي نظرة رضا واحدة، في نظرهم لم يكن جهده كافيا رغم علمهم بأنه يبذل في سبيل إرضائهم كل ما أوتي من قوة وألم، كانت انتصاراته كجريدة الصباح وهزائمه بعدا آخر لنهاية العالم، دائما ما كان يتجرع نظرات ازدرائهم ولومهم على ما فعل

وما لم يفعل وما يتحتم عليه فعله، حتى أصبح لا يبين بين ما يستحق بالفعل وما لا يستحق، لا يجديه احتفاء العالم به أن كان أبويه يرونه في هيئة شيطان مسخ، قال أحدهم ذات مرة "العالم ليس كأمك، تغضب على أمك وتصرخ في وجهها في النهار وفي آخر اليوم تُناديك للعشاء، العالم سيتركك تموت جوعًا".. ولكن أبواه كانوا كما العالم.. فكيف له بمواجهتهما معا.. كان محمود لا يعبأ بروحه بمقدار ذرة، يمقت نفسه إلى الحد الذي لا حد له، ينظر إلى المرآة فلا يبصر شيئا، يتأرجح بين يقين يخبره بأنه لا أثم له، أنه ليس بذلك الحد من السوء ولا زال هنالك أمل في صلاحه وآخر يخبره بأن من هم مثله لا سبيل لهم سوى الموت.. الأسوأ من كل ذلك كان امتلاكه لنفس لوامة.. تلك التي تمتلك من القضاة قسوتهم وحيادية قراراتهم دونما شفقة.. وكذلك فإنها تمتلك من الجناة؛ الضعف وقلة الحيلة.. ولا يعرف أيهما هو.. لم ينصفه من حوله وكذلك هو لم يفعل!!

ما من بغض يعادل لحظة استيقاظه حيث يتحتم عليه ابتلاع يوم آخر لا يختلف عن سابقه واحتمال عبء الأمل في النجاة لليلة أخرى، يعيش وفي قرارة نفسه يأخذ من فكرة الموت أملا بوجود سبيل خفي وطوقا لعبور الأيام، كان ذلك الأمر هو وسيلته الوحيدة للثبات لذا قام محمود بإعداد ما يجب قبل رحيله وترك ما لم يستطع البوح به طيلة حياته القصيرة عمرا والطويلة ألما وحسرة وهي تلك الرسالة التي وجدها أبواه بعد فوات الأوان في دفتره الذي لم يحمل سواها:

قطرة واحدة إضافية كفيلة بإفاضة ذلك البئر المعبأ من رأسه حتى قاعه الذي لا يراه أحد.. لذا لا سبيل لهم بإدراك مصيبته يوما كما يجب.. كما هي!!

إنني في انتظار تلك القطرة.. مللت الغيمة القابعة فوق عينيي.. فلا هي تمطر ولا تزول.. لن أقل إنني متعب تلك المرة.. لقد صار الأمر مبتذلا حتى لي.. إنني فارغ، فارغ مني وكل ما يتعلق بي لم تكتف الدنيا بجعلي غرابا

أسود وسط سرب من الحمام الأبيض والحال أني صرت الآن غريبا عني.. أعيش كالمتربص لنفسه ولا أعلم سوى أنني في خطر.. لا، لست في خطر منهم، الخطر بالنسبة لي لم يكمن يوما فيمن حولي كما رأيته بداخلي.. ما وجدت حتى الآن ما هو أكثر فتكا بي مني.. أنظر بداخلي فلا أجدني.. !! حتى وجهي، جسدي، ما عادوا لي.. لقد تركتني نفسي وانضمت إلى صفوفهم تلك الصفوف التي قد سئمت إحصاءها ولكن.. إنها بداخلي؛ فهي تحوي أكثر من أحببت وأغلى ما امتلكت يوما.. أعني ما ظننتني أملكه.. !! لطالما عانيت من وطأة الأرق ومن ثم الانغماس في كوابيس تجعل من تلك الساعات التي أغلق بها عينيي عقابا حيث تلاحقني الأشياء كلها وتجد لحصاري ألف سبيل.. لذا ما عاد النوم مفرا لي وما عدت أعرف كيف هي الراحة.. تزاولني النوافذ والحبال كل ليلة لمواساتي وإعادة يقيني بأنه هنالك من سبيل؛ فاطمئن وأغفو لليلة إضافية عسى تحمل نهارا لمن هم مثلي.. عسى تبعث لي بغراب يشبهني.. وربما تأتي لي بمعجزة تضع حدا لكوني ذلك الغراب وأجد للعيش هنا سبيلا.. يؤسفني أنني في تلك الدنيا باتساعها ما وجدت عزاء لي سوى فكرة الخلاص وإمكانية الرحيل مبكرا.. أتساءل عن فصل الختام.. ليلة أكتبه بيدي، وأخرى أدعوه ألا يتركني لما كتبت.. إنني لست خائفا.. ولكن يجب أن أخاف...

كمتاهة تنتهي جميعها إلى نقطة واحدة، كروما حيث إن كل الطرق تؤدي إليها، هكذا أنا، مهما فعلت، مهما حاولت، أينما ذهبت، دائما ما ينتهي الأمر بي، بحقيقة أنني ما دمت أنا؛ أنا فلا خلاص لي هنا ولا سبيل، أنا ذاك الجحيم الذي قد يخوّل لنفسي أن الجحيم الآخر حتما سيكن أقل وطأة وأكثر رحمة.. لا أريد لله أن يغفر لي بل أريد دفع ثمن ما فعلت بنفسي.. أود لذاك الجحيم أن يحرق عظامي مرة تلو الأخرى بقدر ما فعلت أنا كل يوم وكل لحظة.. إنني لست خائفا.. ولكن يجب أن أخاف..

تلك الأصوات.. إنها مخيفة للغاية.. لم أعد أحصى عدد المرات التي أفكر بها في إنهاء الأمر كله.. أوقن بأنني لا أملك زرا للتوقف وكذلك لا أملك الحق في اختراع واحدا.. ولكنني أعود في نهاية الأمر لأجد بأن بضعة حبات من ذلك المسكن قد تفي بالغرض.. أعني بأنه لم يفلح في مهمته

الأساسية فربما يفلح في أخرى.. ربما لا زلت امتلك بعضا من القوة وأشباه الصبر.. ربما إن بحثت قليلا سأجد سببا.. ولكن يبدو لي بأنني ما عدت أريد.. عجبا يا الهي؛ كم أن الإنسان ضعيفا، قد ينجو من الألم والحزن ومن ثم يغلبه السأم والانتظار.. أريد للمرة الأولى لتلك الأصوات أن تنتصر اليوم.. سيكون المهزوم أنا...حسنا؛ لقد عشت حتى الآن عددا لا بأس به من السنوات أحسبني منتصرا ولكنني لم أكن بمنتصر.. لقد كنت مغلوبا وذلك أسوا من الهزيمة لو تعلمون.. لم يقتلني الحزن بقدر الانتظار بلا سبيل ولم يخذلني سوى كل ما أملت به.. هنالك من يرحل بجفون مفتوحة على مصراعيها.. أوقن بأن منهم النادم، المغادر بلا حقائب، بلا حلم مكتمل، المغادر بقلب يعبأ بما لم يقال ولا يحزنني سوى أنني أحمل من كل ذلك بعضا .. سأكون كاذبا إذا قلت بأن عناقا واحدا كان سيفي بالأمر؛ لقد عشت وحدي بما يكفي للموت سواه ولكنني ها هنا أمتلك روحا مثقوبة إلى الحد الذي لن يجديها الأرض بما فيها.. لمن سيقرأون تلك الرسالة التي لا جدوى منها؛ كفى بكم علما أن أبأس ما في الأمر هو أنني لم أعرف كيف هي الوحدة سوى بحضوركم الواهي.. ما أردت في تلك الدنيا باتساعها سوى حب بلا مقابل يكفي لعبور الأيام وابتلاع الدنيا ويكن سبيل هدنتي مع نفسي وما تخفيه.. فلتبلغوا سلامي إلى كل ما حلمت به ولم ألقه يوما.. إلى سعي من لا وصول له.. إلى انتظار من لم يكن هنا.. إلى صبري الذي قد خذل كل منا الآخر .. فلتخبروا السماء بأنه ما من أحد قد أحبها بقدري.. مهلا فلتتركوا أمر السماء لي سأكون أقرب إليها أكثر من أي وقت مضى.. سأنظر منها إليكم كما تمعنت في النظر إلى ساكنيها بينما كنت هنا.. وحدي.. حينما ترون ذلك فحتما لن أكون هنا.. سأكون عند الضفة الأخرى التي لطالما تطلعت إليها وتمنيت الرسو بها، ربما لم تكن تلك الوسيلة المحببة للذهاب ولكن ماذا عساي أن أفعل.. إنها الدنيا.. إنه أنا.. ولا سبيل لي بالاثنين.. دمتم سالمين"..

وفي زاوية أخرى يجلس أصدقاؤه كالكلاب الضالة التي قضمت يد صاحبها بالأمس ومن ثم أتقنت دور الندم باحترافية؛ ياسين وسيد، بينما يجلس أحمد في ركن بعيد مظلم لا يصله ضوضاء المكان ولا تعترضه سلامات مبتذلة، تحوم فوق رأسه سحابات رمادية لا تهطل، غارقا هو في أفكاره التي لا يعلمها سواه وإلى جانبه "محمد" الذي لا يختلف كثيرا عن حاله إلا أنه كان أشد وطأة بقليل.. كان لديه أسبابه هو الآخر!! .. لم يسبق لأحدهم الاقتراب من محمود لأجله.. لكونه هو فقط، لم يحظ يوما بانتباه أحد فيما يتعلق بشخصه، بقلبه ومكنونه، بالنسبة للجميع ما هو إلا أداة نفع متحركة، كان الجميع يود شيئا وفي مقدمة تلك الصفوف ياسين وغيره من زملائه الذين يتوددون له وقت الحاجة فحسب، بالإضافة إلى صديقه الأوحد "محمد" كان كسراج أُضيء بعد ليال طويلة حالكة السواد لمن تناسى ماهية الضوء واعتادت عيناه اللاشيء ومن ثم حلّ الصباح وانتهى كل شيء تاركا إياه يتساءل لما لم يكتف الزمان بما أخذ، لما قد أعطاه وطنا لليلة واحدة فنام هنيئا مطمئنا ليستيقظ على صوت القنابل والمدافع، لقد كان بالنسبة له كما الأمل الذي تسلل إلى قلبه عنوة وكذلك رحل عنوة ومن بينهما يتقطع هو إربا.. كان خيبة إضافية في صفوف خيباته ولكنها الأشد وطأة فكما يقولون "يكن الألم بقدر المحبة" وأيضا بقدر البذل فما استبق محمود لأجله شيئا واحدا.. رحل محمود دونما يستطع إخباره بأنه "الجميع" في حين أنه كان "واحدا" من بين الكثيرين.. دونما يقص له ذلك الألم علّه يدرك كيف هو الفرق بين الواحد والجميع.. كيف هو الأمر حينما لا يكن هنالك بديل لأكثر أشيائك قيمة.. الأمر أشبه ب "قط" قدر الله له أن يمتلك من الأرواح واحدة.. واحدة فقط .. لطالما كان يحاول محمود الحفاظ على حبل وصالهما ولكن دون جدوى، كان وحده من يمسك بالطرفين حتى تساقطت أصابعه واحدا تلو الآخر لذا وبعد طول عناد قرر ترك الحبل هو الآخر دونما يعبأ لكونه قد أصبح في نظر محمد ندبة كغيره.. لم يقم

محمود بالتبرير يوما إذ أنه شعر بأنه ليس هنالك ما يقاتل لأجله منذ أن اجتاحت حياة صديقه البدائل التي جعلت من محمود ورقة خاسرة قد انتهى أجلها..

كان يعلم كل ذلك حيث إنه يمتلك قلبا لا يخطئ أبدا، يبصر الخيبة قبل وصولها بأميال ويشتم رائحة النفاق ولكن ما كان في وسعه سوى التجاهل وإيجاد السبيل لابتلاع شعوره واحتمالية صوابه من خطئه،، كان يود لو يضع حدا لكل هذا، أن ينل نصيبه من التمرد والعصيان، يود الاستسلام ورفع راية بيضاء لتلوح في كل أفق معلنة بأنه قد طفح الكيل، بل وعلاوة على ذلك كان يحمل عبء احتمال سطحيتهم بابتسامة باردة، أراد الصراخ بما في جعبته والقسم بأنه لا سبيل له سوى اللاشيء.. كان يود الاستعانة بطبيب نفسي فقد كان يدرك أن الأمور قد خرجت عن سيطرته تلك المرة فلا إيمان يجديه ولا وجود لباب واحد لم يطرقه.. أدرك بأنه ما عاد في وسعه النجاة وأن قوته لا تكف لبعض الأشياء.. كلما حاول كلما ساءت الأمور أكثر.. ولكن كعادة المصريين لا يعترفون بما هو عدى درجات الحرارة المرتفعة والسعال.. لذا فقد كانت حياته أشبه بالكمين، لا يعلم أيهما ينصر هو أم هم، أيهما على حق ولمن ستكون الغلبة والى أين المفر.. فقير هو إلى الحب أو ما شابه.. عليل لا يمتلك حق الشكوى والتوقف.. يظن جميع من حوله بإحاطتهم ومعرفتهم الكاملة به إلا أنه قد برهن خطأ الجميع..

***

كيف لكي بفعل ذلك؟!

فعل ماذا!!

. الانضمام إلى صفوفهم بل وتربع المقدمة!! أما كان ذلك باختيارك وإرادتك!!

. اختياري!!.. متى أتيحت لي فرصة الاختيار يوما.. لطالما كنت عالقا بين متاح غير مرغوب ومفروض لا سبيل لي به.. لطالما كان الاختيار بين الجيد والسيئ، الجنة والنار، ولكن يبدو بأنه هنالك ما يسمى بـ "الاختيار الأكثر هونا" .. الأمر أشبه بتخيير أحدهم بين قلبه وروحه .. وحده من يعلم بأنه ما من سبيل للعيش دون الآخر.. أشبه بذلك الطبيب الذي ألزم مريضه بالاختيار ما بين بتر قدميه أو السماح للمرض بالتفشي في بقية جسده ولكن ذلك الطبيب لم يكن يعلم بأنه ما من موت أعظم من الضعف وقلة الحيلة.

ألم تسأم العيش في دور الضحية، ألم تكتفي بلومي، عذرا عزيزي لست أنا الملام الوحيد.

. حسنا؛ ربما كنت أنا كذرات ثاني أكسيد الكربون التي ساعدت على الاحتراق ولكنني لست البنزين، لست النار ولست عواقبها.. لا سبيل لي بطبيعة خلقي ولا أملك من أمر العالم شيئا.. ربما كنت كقائد متخاذل ولكنني لم أكن ذاك السلاح الذي قد أدار فوهته إلى وجهي.. عندما أقع لا أصرخ ولا أشتكي، فقط أكتف بلملمة نفسي والنهوض في صمت أو البقاء أرضا حتى تشبع الدنيا عينيها من رؤية الشجاع بعد انكساره حيث تحول الدنيا بينه وبين كل ما آمن به يوما وما قاتل لأجله فتتشابه الطرق وتبهت معالم كل شيء..

ماذا تريد الآن؟

. أريد منك العودة إلى، لا طاقة لي بجسد خاو وفارغ مني..

ولكنني أكرهك، أمقت أنفاسك، سئمت ضعفك وتخاذلك، كم أنك بائس تتسلل آثار الخلاص أينما ذهبت، كاذب تتعهد في الصباح بما تودع رماده كل مساء وساذج تظن أن ذاك العالم سيمنح لجناحيك سماء ولنبتتك أرضا وماء..

. كيف لك بكرهي، إنكِ أنا وأنا أنتِ، كيف لكِ بالتملّص مني والانضمام إليهم، أصابعي.. أصابعي ما عادت تعينني لعناقي كل ليلة مثلما اعتدت.. وحدك تعلمين أن ذاك العناق هو بمثابة جسر عبوري لصباح آخر يحمل من قسوة العالم ما يكفي ويزيد، ضجيج رأسي ما عاد محتملا وتلك الوساوس التي ترددها كل حين؛ إنها تؤلمني وتفقدني القدرة على الصمود، أحادثك فلا تنصتين، أدفعك إلى الأمام فتعودي بي مائة خطوة، ما بالك يا نفسي.. ما عدتي تنتمين إِلَيّ.. هل سنظل هكذا!!

. نعم ما دمت لا تستمع لي

. ماذا الذي يتوجب على فعله بعد؟!

لقد أخبرتك مرارا وتكرارا أن من هم مثلك لا سبيل لهم سوى تلك النافذة التي قد ملّت انتظارك، أو ذاك الحبل الذي تستشعره أناملك كل ليلة، وربما جرعة زائدة من تلك العقاقير التي يعجب الأطباء لوصفها لمن هم في مثل عمرك بلا سبب وجيه، نعم؛ إنهم لا يعلمون ولكننا نعلم كم من ليلة قد تخلّف بها الفجر عن القدوم، كم من صفعة يتلقاها وجهك كل يوم وكم من قوس قزح خلفته يداك على جسدك دونما رحمة، كم مرة تغاضيت بها عن حاجة جسدك إلى الطعام والنوم.. كم ابتلعت من خذلان وكلمات جارحة أشبه بخناجر مسمومة في قلب من جعل نفسه قربانا لمن حوله أولئك الذين لا يسأمون الأخذ وأنت بدورك لا زلت أجبن من إيثاري وحفظ بعض من حقي عليك، لم تشفق علي يوما فلم سأشفق أنا الآن؟!

. حسنا؛ سأفعلها، لقد عاندتك بما فيه الكفاية وكلما عاندت؛ كلما خسرت أكثر رغم كوني ما عدت أملك شيئا لخسارته، سأفعلها... لا جدوى ولا سبيل ما دمت أنا؛ أنا..

كان ذلك الحوار أشبه بشروق الشمس وغروبها.. أمر معتاد ومبتذل، عاش محمود حياته في ريب من حدوثه أو عدمه، لطالما كانت نفسه شيئا

لا يعرفه كما لو أنها لوحة لا يمثل هو جزءا واحدا منها، وها قد حدث ما يخشاه، لقد فعلها.. إنه ذلك الذي قد مات لكونه شيطان نفسه وملاك غيره.. كم أن الدنيا قاسية على هؤلاء الذين عجزوا عن حمل أنفسهم ومنحها بعضا مما يغمرون به العالم!!

***

يناير 2017

اصطف الشباب الجامعي في انتظار ذلك المحاضر الذي لم يسبق لأحدهم السماع عنه من قبل.. منهم من كان يمتلك حيزا مثقفا بداخله يميل لكل ما يخاطب العقل ويتحدث عن الحياة كما لو أنها شيئا مدروسا بعناية ومنهم من أتى ليحجز مكانا في الصفوف الأخيرة التي تضج بضحكات لئيمة وطرافات عبثية ما هي إلا ستار هؤلاء الذين لا يملكون حلما وليس بوسعهم سوى الاستهزاء بمن هم بمثابة مرآة لهزائمهم وتخلفهم عن القطيع.. بينما ينتظر الجميع؛ كان ذلك المحاضر يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وراء الستار.. ترتجف أطرافه وبشكل أو بآخر قد انتقل الأمر إلى روحه.. ينظر إلى السقف مبصرا ما فوقه بمئات الأمتار ويدفع بنفسه إلى المسرح كمن لا يملك ما يخسره، بلا مقدمات ابتدأ حديثه سريعا بقول:

لفتت نظري بعض رسائل انتحار منها.. "كنت أتمنى أن يكون هناك شخص واحد على الأقل فخورا بى، لكن حتى أمي كانت تقول لى إنني دائما فاشل".. "أشعر بالبرد بالرغم من دفء الجو حولي، إنه البرد الذي يتسلل لروح المرء عندما يشعر بالوحدة".. " كم أتمنى أن ينقذني أحد"... "لم أجد يدا تربت على قلبي قبل أن أكمل كتابة رسالتي الأخيرة".. "سيدة إنجليزية وجد في مذكراتها تدوينة مكررة؛ اليوم لم يأت أحد لزيارتي".. "سأتمشى وصولا للجسر وإذا ابتسم لي شخص واحد لن أقفز".. "لم أكن على قيد الحياة في جميع الأحوال، "لم أستطع أن أحب نفسي، لم أكن

جيدا لأعيش هذه الحياة"، "الأفلام والموسيقى لم تعد كافية لمواجهة الحياة"..

"فكرة أن أحدا كان قادرا يقف بينه وبين الموت حضن، ابتسامة، ربتة يد، كلمة تقوله استنى.. كمل.. عايزك ومحتاجك.. بحبك.. أسف.. في اللي ممكن يستخف بهذا لكن هي دي الحقيقة شئت أم أبيت.. الفكرة مش في الحضن والكلمة وغيره الفكرة بتكمن في معجزة اسمها "السبب /الدافع".. كل واحد فينا محتاج سبب عشان يكمل.. عشان يقوم من السرير كل يوم.. وياكل ويشرب بنهم.. يبدي ردود أفعال.. يعافر ويقاوح مع نفسه والأيام ويستحمل رتابة العمر ووطأة المحطات.. محتاج خيط يربطه بالدنيا.. خيط يقوله إن مهمته لسه منتهتش .. والأهم من كل ده محتاج يحس أنه مهم، أنه في أول الرف ويستحق يكون أول اختيار، محتاج برهان واحد يأكدله حب اللي حواليه وقربهم لشخصه مش لدافع.. زوال حبهم مرهون بزواله وأنه مش مجرد كارت قابل للحرق والتخلي.. من فينا مش عايز يهرب لكن فيه اللي بيفضل محلك سر ويتحول تدريجيا لجثة متحركة وفيه اللي بيعيش حياته بيجري لكن في نفس المكان.. الدنيا صعبة وقاسية.. أحمالها عظيمة لكن كل ده بيهون لو اتقسم على اتنين.. لو الحزن اتقسم على قلبين والسند أصبح من لحم ودم.. الخوف أضعف من ربتة الأيد والحضن اللي بيقول بدون ما يقول "انا هنا.. جمبك".. مفيش في الدنيا مخلوق يستاهل يموت من الوحدة.. والاحتياج.. من قلة الدفا.. جيلنا أصبح جاف.. مستعد دايما للإفلات والتخلي.. متقبل لفكرة البدائل.. مش بإيده؛ جايز لأنه اتمسك لحد ما اتوجع .. اتعلم أن البقاء للأقوى .. للأقسى.. وأن اللين والطيبة فخ وكانسر.. كلنا اصبحنا مرضى بفكرة أن مفيش حد هيفضل وأن كله بيمشى.. فبقينا سريعين الإفلات واتحولنا لأسلحة دفاعية.."

كان ينظر إلى إيماءات الجميع برؤوسهم منهم الناظرين إليه ومنهم من انصب برأسه إلى الأسفل في خجل وحيرة، يرجو من الله أن يلهمه القوة لإتمام الأمر كما يجب..

لو المكتئب عقله بيشتغل بنسبة 1% في الواحد في المية دي بتكون ورا هدف واحد اسمه النهاية، معضلتنا كشعب مصري وعائقنا الأوحد هو الجهل، جهل التعامل مع الأمور بكافة أنواعها.. لو خدنا مثلا على التعامل مع المكتئب هنلاقي أن أغلبنا بيقول نفس الجمل المبتذلة.. في بيدي أمل ويعشمه ببكرة وبالعوض الخ الخ وفيه اللي بياخدها من قاصرها ويقول يا عم قرب من ربنا وكله هيتحل.. وصلنا لـ ٢٠١٧.. ولا زلنا مش قادرين نفهم إن الاكتئاب مرض بل هو أعظم الأمراض لأنه ملوش حبكة.. المصاب بيه بيكون في معادلة بيمثل فيها الطرفين.. في سباق محدش بيجري فيه وراه غير نفسه وحياته المؤجلة لأجل غير مسمى.. بيعاني من ألف سهم غير مرئي.. قراراته وقتها بتكون حتمية ومفيش حيز فيها للعقل والمبادئ بل والإيمان.. فيه مقال عظيم للروائية الجميلة أماني العدوي: إياك أن تخبر مكتئبا أن القادم أجمل.. المكتئب لا يرغب بالقادم حتى وأن كان "الجنة".. المكتئب لا يريد سوى الرحيل.. أن يتوقف قلبه عن النبض.. ألا يسمع.. ألا يبصر.. لا تخبر مكتئبا بأن القادم أجمل.. أخبره بأن ينتفض.. بأن يغضب.. بأن يخرج مكنون صدره.. وإن فشلت اكتف بضمه.. احمه من العالم.. هذا إنسان قد أخبره جسده وعقله وقلبه.. بأنه لا مفر..!!

لاحظ الجميع نبرة الغضب التي اجتاحت ذلك المحاضر كما لو أنه يخاطب قاتلا بعد جريمته أو يمنع واحدا من الإقدام عليها، تصبب عرقا رغم برودة القاعة لذا حاول لملمة شتات نفسه والتحدث بنبرة أكثر لطفا كي لا تنقلب الآية على صاحبها.. فتابع حديثه بقول:

"اتعاملوا مع اللي حواليكوا على أنهم حفنة من البلياتشو.. ابتسامتهم ما هي إلا حلاوة روح ربك وحده الأعلم بخفاياها.. طبقوا في تعاملكوا مثال البلياتشو اللي أخد خبر وفاة ابنه قبل ما يطلع ع المسرح ودموعه كانت مصدر سخرية للجمهور ظنا منهم بأنه جزء من العرض.. إحنا كلنا عايشين وجوانا بلياتشو بيمشي على وجعه.. بيعدي بينا الأيام لكنه مش

بيتجاوزها.. بيفضل من كل ابتسامة شقت نفسها من جوف الوجع؛ ندبة وحمل بيبان أثرهم تباعا لما القهوة اللي مش مضبوطة بتكون سبب كافي لهستيرية بكا أو لما النكتة البايخة بتثير ضحكنا بالنص ساعة.. لما نلاقي طعم الفرحة ماسخ والحزن طيف ملازمنا في كل لحظة وفي أي مكان.. عمرو حسن لخص كيفية التعامل مع المكتئب في قصيدة المايسترو لما قال: "احترموا المتعور من دول، حاوطوا المهموم قبل فراقه، لو كان ساكت يبقي لأسباب، أوعوا تشيلوا إيديكوا من الباب، املوا حياته بحب وأحباب"!.. اوعوا تشيلوا ايديكوا من الباب واوعوا تفتكروا أن اللي ورا الباب مش مستني وإن كان هو اللي حط الأقفال بإيديه..

لو سلطنا الضوء على حياة المشاهير هنلاقي أن حالات الانتحار أصابت أعظمهم وأكثرهم إلهاما للبشرية زي.. داليدا.. فان جوخ.. روبن ويليامز.. هيث ليدجر.. وده ينبهنا لنقطة أن النجاح، الفلوس، الجاه، الشهرة وحب الجماهير وغيره عمرهم ما كانوا كفيلين للوقوف كحاجز أودام الرغبة في الانتحار.. الحاجز الوحيد في نظري بيكمن في "الحقيقة "، امتلاك شيء واحد أو شخص واحد حقيقي، انقضاء عمر بدون سؤال: "أنا عمري ضاع في أيه أو على مين"، بيكمن في عبارة قالها هيث ليدجر: "كل من تقابله يسألكَ عن مهنتك، وهل تزوجت وهل تملك منزلًا كما لو أن الحياة هي قائمة مشتريات بقالة! لا يسألك أحد أبدًا هل أنت سعيد!" واللي بتوصلنا لنقطة أن رضاك عن حياتك وطريقك، ألفة روحك واستباحة جهدك وعمرك في ما ترضاه هما الأساس اللي بيتبني عليهما أي شيء، السراب يا سادة هو سلاح فتاك مش بيميز ما بين قوي وضعيف، فاشل وناجح، السراب بيقدر يخلق فجوات أشبه بثقوب سودا بتفضل تكبر جواك لحد ما بتنفي ماهيتك وشخصك وبتتحول عبد للبحث عن الخلاص وامتلاء الفجوة وأن كان بانتهاء وجودها ومحلها.. الانتحار مش بيكون اختيار من بين اختيارات كتير.. الانتحار دايما بيكون الاختيار الوحيد المتبقي للشخص.. نتيجة حاجة اسمها **collapsed perception**..

معامل الإدراك بتتقلص في اتجاه واحد مؤدي للنهاية.. رغم أن الإنسان مدرك أن حياته مش هتتكرَّر تاني وأنها رحلة ذهاب بدون إياب إلا إنه في أتم الاستعداد للتخلي عن كل شيء..

وضع يديه في جيبه، وقف منتصبا وقال بعد شهيق طويل: الحياة باردة بشكل كاف؛ خليكوا أنتوا الدفا.. تبتوا في بعض.. بلاش مكابرة.. بلاش حسابات وعقد.... بلاش أوهام بتقول "بكرة" "طب بعده".. بص في وشوش اللي حواليك.. اسمعهم بقلبك.. كونلهم وقت الحاجة طوق نجاة.. لو الدنيا وحشة كون أنت الحلو اللي فيها وأعرف أن "البعض" اللي هتمده لغيرك النهاردة وإن كنت في أمس الحاجة ليه هيكون هو "الكل" اللي هيرجعلك في الوقت اللي هتتقفل فيه كل البيبان وتصبح النجاة مستحيلة.. العظيم البير كامو قال: "عار على البشرية أن ينتحر شخص كان في أمس الحاجة إلى عناق طويل".. ارواحنا غالية لكن أودام الاحتياج، الوحدة والغربة قد تكون في نظر صاحبها أبخس ما يكون.. العمر مبيستناش حد.. وعمرنا ميستاهلش يضيع ببلاش.. محمود مكانش يستاهل يضيع ببلاش..

ساد الصمت في القاعة بأكملها.. يرتقب كل من الآخر ردة فعل تذكر ويتساءل من هو محمود.. في نظر الحضور كان ذلك الحديث موجها إليهم ولكن وحده كان يعلم بأنهم ما كانوا سوى مرآة لنفسه، لما يود إخبارها به وبيان اعتذار متأخر.. متأخر جدا..

لاحظ المحاضر تعابير وجوههم التي يرتسم عليها علامات استفهام في اقتطع حيرتهم بقوله: كان معكم دكتور أحمد العدوي ماجيستير في التنمية البشرية، أما بالنسبة لمحمود فهو كان طير في ملكوت الله لكن بدون جناحات، جناحه كان قلبه بس الأرض كانت أقسى من غريب ميملكش إلا قلب من لحم ودم، الفرق بينكوا أنه ما خدش فرصة على عكسكوا النهاردة.. متنسوش تقرأوله الفاتحة.. أشوفكم على خير..

كان وقع الحرف الأخير في حديثه على نفسه أشبه بإزاحة حجر جانبا دون التفوه بما لا يرضي الله والنفس..

ثلاث سنوات، اكتسب خلالها أحمد كل ما يؤهله ليصبح مدربا للتنمية البشرية، يلتهم كل فرصة ولا يترك بابا دون طرقه وانتزاعه إذا لزم الأمر، وضع نصب عينيه على الشباب، يبصر محمود في كل واحد منهم، من يراه يشعر بأنه يتنفس شيئا لا يشبه الأكسجين فقد كان يتنفس الخطوات اللي تقربه من هدفه يوما بعد يوم، يطمح لترك أثر يتمثل في كلمات صادقة يرجو من الله أن تكن كفيلة لتغيير مسار أحدهم وإنقاذ آخر، يطمح أن يكون صورة مصغرة للعالم الذي يريده، للمرة الأولى وجد لنفسه سببا للعيش، وجد ما يحلل نبضات قلبه وأنفاسه العبثية، وبالفعل كان اليوم هو أول محاضرة له في إحدى الجامعات وقد اختار الانتحار كموضوع أولي وفي داخله يعلم بأن ذلك الموضوع بالتحديد هو أشبه بخيط منه ابتدأ العنكبوت بيته وافتتحت به الجدة بالبسملة فراش أريكتها...

في كل صباح ومساء عند نافذته التي شهدت الكثير يتساءل لماذا؟!.. لماذا قد اختاره الآن عوضا عن محمود.. ما الذي يميز بينهما.. لما لم تتبدل الأدوار.. كيف له اليوم أن يكن أداة لتوعية من حوله والأخذ بأيديهم لتجنب ما لم يبصر سواه كسبيل بالأمس.. ولكنه لم يأبه بتلقي الإجابة فقد كان الوصول يكفيه حامدا الله على تضارب الأصوات بداخله.. عاش أحمد حياته يصارع الخطأ والصواب، الأمل واليأس، يشكو وطأة انفصام نفسه بينما هو عالقا في المنتصف ولكنه الآن أدرك بأن هنالك من لا يملكون سوى صوت واحد، قد يؤدي بهم إلى الصواب أو الأزرق.. وهنا يكمن الفرق بين أحمد ومحمود، كلاهما قد رأى من الدنيا ما يكفي وافتقر إلى نصيبه من الأهل والأصدقاء فتجرع الوحدة والسراب بما يعادل أنفاسه ولكن كانت الغلبة لمن استطاع الظفر بنفسه والنجاة بها لمجابهة كل ما هو سواها.. الأمر أشبه بمسكن يقف على

عامودين لا ثالث لهما.. خسر أحمد الأبواب والنوافذ إلا أن محمود قد خسر العامودين.. خسر الكيان فما عاد هنالك سبيلا للمكنون.. كلاهما كان يصون حق ربه حتى النخاع لذا بإمكانك رؤية الله في كل قول وفعل ونظرة، يخشى البعض من الشيء فيتجنب الشك فيما يغضب الله باليقين وأن خالف هواه وهنا نستطيع الجزم بأن الاكتئاب كقرحة المعدة لا علاقة له بدين أو مبادئ، لا علاقة له بما سواه، الاكتئاب ما هو إلا شيء غير قابل للجدال والأحكام.. قرار الانتحار وإن كان يترتب على نية مسبقة في تنفيذه يخلو من الوعي حيث تكن إشارات المخ تحت وطأة المعاناة فتندفع جميعها نحو هدف واحد وهو الفرار وإنهاء الأمر ولا سبيل لها بالنظر إلى ما هو أبعد من ذلك، لا طاقة لها بالغد حيث أن عباءة اليوم لم تترك مجالا لما سواها، لذا علينا التوقف عن اتهام المرء حزين هو أم منتحر بتقصيره في حق ربه وحياده عن المسار، بإمكانك حرقه حيا، دهسه بالسيارة ذهابا وإيابا أو رميه بوابل من الرصاص ولكن إياك أن تستهين بجرحه فتتركه عالقا بين وطأة ما يجابه واحتمالية مبالغته للأمور فتجعل منه وغدا يتساءل أيهما يمثل في تلك القصة الجاني أم المجني عليه ومن ثم يصطدم بحقيقة أن طوق نجاته من شوك وأنه في الأمر وحده.. وحده تماما..

ما عادت نافذة أحمد سبيلا لاستطلاع مكانه بين النجوم بل أصبحت هي الشاهد الأوحد لما كان عليه ولما قد أصبح.. في تلك اللحظة فقط كان قادرا على احتضان ذلك الاقتباس الذي لم يفارق ذهنه منذ أن رآه "ليشاهدنا اليوم من لا يجد في نفسه القوة الكافية للجري"، حينما رآه كان بالكاد يحمل نفسه ويستثقل قلبا بحجم قبضة يده ولكن شيئا بداخله كان يوقن بأنه لا زال هنالك بداخله نبتة صغيرة في وسعها النماء.. لم يقطع في نفسه الأمل يوما راجيا من الله كل ليلة ألا يخيب.. وما خاب..

وجد أحمد ورقة مطوية بإحكام، ملقاة تحت قدميه، قام بفتحها بدافع الفضول لا أكثر فوجد بها: "أيدرك أحدكم كيف هو الاستمرار لمن

يعيش على الحافة، فلا يستند ولا يجلس، ترتعش أطرافه وبسبيل أو آخر قد انتقل الأمر إلى روحه، يردد كل يوم بإيمان قد فاق حدود صبره وكل فاق كل شيء "لا بأس.. سنحاول مرة أخرى"، يعلق آماله المتعبة على الفجر عله يحمل النجاة والسبيل.. يأتي الفجر ويليه عشرة ولا يحدث شيئا.. ومع كل ليلة تتبعه يمت بداخله أملا ومع إحياء آخر يمت هو بلا توقف، لا جلد له بالبقاء هكذا ولا سبيل له بتغيير الأمر أو إيقافه لبرهة، إن أراد الاستسلام وترك الأمر فلن يجد من السبل ما هو أيسر من ذلك وأن تمنى في قرارة نفسه أن يكن هنالك حاجز بينه وبين ذاك الاختيار فلن يجد، إن أبى وعزم على الصمود فسيدرك في نهاية المطاف أن صموده ما هو إلا إعداد للخيار الأول ولكن بشكل آخر؛ أكثر ثباتا وأشد وطأة، الأمر أشبه بمن يركض فوق فتات صبار، يوقن بأنه ما من سبيل لإنهاء الطريق ولكنه يريد الثبات للمزيد كي يخلق لنفسه شفاعة أمام الله عند الاستسلام، كمن يعرف مصيره وفصل الختام ولكنه لا زال يتشبث باللاشيء موقنا بأن المعجزات قد تحدث ولا يتمنى سوى القدرة على الانتظار حتى وقوع واحدة.. أكثر ما يؤلمني هو أنني ما حلمت سوى بالقليل وإذ أنني لم أجني سوى السراب.. سوى خيبات لا تنتهي ونوبات حزن قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من ثنايا قلبي وكأنه زكاة روحي في الدنيا وسبيل شفاعتي في الآخرة.. لم أجد سوى معارك بلا زاد.. بئر يوسف بلا قافلة.. حزن يعقوب بلا قميص يوسف.. وصبر أيوب بلا استجابة.. أيعي أحدكم كيف هو الأمر حينما تدرك في منتصف طريق ذي اتجاه واحد؛ أنه لا طاقة لك بالمواصلة ولا سبيل لك بالعودة، تلتفت حولك فلا تبصر شيئا.. لقد تلاشت العلامات وما تبقى سوى تلك الزهرة التي ما عادت تحمل سوى ورقة واحدة مهترئة؛ كنتيجة حتمية لزرعها في غير مكانها.. وهنا تدرك كم أنك أحمق ساذج ظن بنفسه القوة للرقص على الأشواك حتى النهاية.. وفي كل مرة تصطدم بحقيقة أنه لا جدوى.. لا مفر.. كل ما فات قد ضاع سدى وما من شيء بداخلك يحتمل المضي لما هو آت.. إنه

إثمك أنت وما من أحد غيرك ليحمله.. إما المواصلة بشيء من الإعجاز أو الموت وما من سبيل آخر.. لست قادرا على المقاومة بعد الآن.. لقد نفذت أسباب لم تكن حقا هنا ولكنني قد جعلت منها شيئا حقيقيا يعينني على المواصلة ولكن يبدو بأنها قد سئمت كصانعها.. هناك أصوات بداخلي تردد أنني في المكان الخطأ.. أسير في طريق غير طريقي.. أصارع لأجل حلم لم أحلم به قط وأشقى في رحلة لم تكن منيتي.. بل وجدت نفسي بها وحسب أدفع ثمنا لا أعرف سببه.. وأحارب في معركة لست إحدى طرفيها.. لقد حاولت جاهدا إحجام تلك الأصوات وإرضائها بتجميل الواقع بأي طريقة ممكنة ولكن صداها يعلو كل يوم.. أشعر بها تصدع صدري وتحارب للخروج.. أشعر بها تقتلني.. تفنيني !! أتخيل آلاف المشاهد لصرخاتي الحبيسة ولكنها لم تحدث على أرض الواقع ولو لمرة واحدة.. لم أعطي لنفسي هذا الحق.. حق الصراخ والاستسلام.. فبالنسبة لي شقاء المقاومة أهون من مكابدة المرء للنهوض مرة أخرى بمفرده.. قد يستغرق بناء مجسم بضع ساعات وربما أيام ولكن سقوطه لا يحتاج لأكثر من بضع ثوان.. لقد وجدت نفسي في خضم أمر لا أدري ماهيته ولكنني مطالبا بالتحمل والمواصلة.. كيف لي أن أبحر وأنا لا أرى المرسى ولا أعلم إن كان هناك واحد أم لا.. ما فائدة القمر إن كانت الظلمات قد اجتمعت في قلبي.. ما فائدة النجوم أن كنت أنا ضالتي.. وكيف هو السعي إن كان الوصول لا يعنيني.. في الوصول بالنسبة لي كوصول سجين قد حكم عليه بالإعدام ظلما إلى مقر إعدامه.. ونجاته ستكن بمثابة المعجزة في زمن أصبح فيه البقاء حيا هو المعجزة الحقيقية.. أنا كالغريق الذي وجد نفسه محاطا بالأمواج المتلاطمة فإما أن يقاوم يائسا أو يستسلم ويترك جسده ليحتضنه البحر ويلقيه في القاع.. لا شيء ينتظره على أية حال وغيابه لن يضير الكون.. ولكن يجب أن اعترف فأنا قد وصلت إلى ذلك القاع منذ الأمد.. لا أعلم إلى أين يمكن للمرء أن يسقط بعد وصوله إلى

قاع أحلامه.. نفسه.. حياته.. هل هناك قاع بعد القاع.. هل هناك موت بعد الموت.. كيف لله أن يثق بي إلى هذا الحد".

انتهى من قراءتها بينما ترتسم على شفتيه ابتسامة مختلطة ما بين الانتصار والسخرية من مجريات الأقدار، لقد أدرك في نهاية المطاف بأن خياله ما كان سوى سرد لما هو آت.. أدرك كيف يمكن للحياة أن تولد من الممات وكيف للمرء أن يجعل من القاع سلما وصخرة يخطو بها فوق حياته المعبئة بالخراب.. أحمد لم تمنحه الدنيا طريقا لذا فقد قام بصنع واحد يرتضيه لنفسه ومن حوله.. كان هو ذاك المرء الذي يحمل بداخله ثقل الجبال، كل ما حوله يخبره بأنه ما من ضوء ينتظره في نهاية النفق وها هو الآن قد وصل إلى ما بعد النهاية ليصنع بداية جديدة تليق بانتظاره.. تليق بمن اتخذ من عبارة رضوى عاشور: "هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا" بساطا بلا سماء وأملا بلا دليل..

***

كل لديه أسباب كافية تدفعه إلى الانتحار، لديه عائقه الذي يجعل سعادته في بعد السماء واحتمالية المعجزات، ولكن ما يجعلنا نستمر هو ذلك الأمل الذي يخبرنا بأنه ربما هنالك طريقة لصنع شيء عظيم وإدراك غاية وجودنا على الأرض، ربما تلك النهاية المحتومة ستحمل في جوفها بداية لكل شيء وصلاحا ما دفعنا إلى الهاوية.. ربما ستضحك لنا الدنيا يوما، لن يستمر ما بنا ولن تكتفي الأقدار بوجه واحد، سيكن هنالك في الطريق ما يليق بكونه اعتذارا عما فات وهدنة مع كل ما هو آت الأمر فقط يحتاج إلى مزيد من الصبر والمحاولة إلى اللانهائية وما بعدها ومن ثم سيغدو الكون بخير، ستشرق الشمس وتستريح العاصفة، سيغدو الميدان آمنا كما لو أنه ما شهد حربا قط.. وقبل كل ذلك هو التشبث فيما تبقى منا والثقة فيما عند الله.. الثقة في وعده بعطاء مشروط

بالرضا.. في جبره الأشبه بمن يجد كل ما بذله عائدا إليه كعودة جيش منتصر بعد حرب لا يعبأ بأسقامه وجروحه، فلا يعير الجنود اهتماما لرؤوسهم الدامية؛ بالنسبة لهم تلك الدماء التي تكللت بفوز ما هي إلا قطرات من عسل، فلا يأسف القائد على شيء، ما يلبث حتى يجد السماء بما فيها قد تزاحمت في ثنايا قلبه فيحلق جناحيه بينما لا تزال قدماه هنا على الأرض.. يسير كمن يشعر للمرة الأولى كيف هو السير بروح أخف ونفس راضية ترى الكون بأجمعه كطفل يود احتضانه ومداعبته، هكذا هو جبره يأتي مناسبا، معادلا لبأسك ومضاعفا لاستحقاقك، يأتي شافيا أينما حل فتشعر كما لو أنك لم تذق الأسى يوما.. يأتي كغيمات مطر قد اجتمعت في يوم مشمس لأجل تلك الزهرة التي لا يدرك ذبولها سواه.. إننا نخطئ عندما نظن لوهلة أن أمور البدايات والنهايات قابعة فوق أكتافنا ونتناسى كوننا لم نؤمر سوى بالسعي، الرضا والتوكل على من بيده الأمر كله، نخطئ عندما نحمل أنفسنا ما لا طاقة لها به ومن ثم نشكو وطأة الدنيا، هنالك يا سادة نوعان من الإرادة؛ إرادة العبد التي تتمثل فيما أمرنا به الله والمحاولة بكل ما أوتينا من قوة وربما من ضعف حتى الرمق الأخير ومن ثم ينتقل الأمر إلى إرادة الرب التي تتطلب منا القليل من الصبر والكثير من اليقين، القضية كلها لا تحتاج سوى شهيق طويل وزفير يعادله وتسمية اليوم بـ "الغد" وما بعده حتى يأتي ذلك الغد الموعود، ربما يتحتم عليك النظر في اتجاه آخر عدا ذلك الذي لا تستطيع إليه سبيلا حتى ابيضت عيناك ووهنت عزيمتك، صدقوني لو أتيحت لنا الفرصة للموت بإيدينا أو بفعل القدر سنعرض عنه إعراض من هو جبان جدا للاستسلام وشجاع جدا للمقاومة.. في داخلنا نعلم بأن الدنيا تحمل نصيبا للجميع وخالق الدنيا لا يغفل عن أحد ولكنه الوقت..

إن الأمر برمته وأن عظم؛ مرهونا ببداية ونهاية فلا دوام لما تعانيه، خوفك أيضا مرهون بقدرك وذاك القدر ما هو إلا بضعة سطور في كتاب بيد حكيم خبير وعدك بألا يحملك فوق استطاعتك لذا فحينما يبلغ

عناؤك الحلقوم سيتوقف الأمر كله وتأخذ نصيبك من السلام الذي لم تعرفه ومن ثم يأخذ كل ذي حق حقه، تلك الرحلة قد يخيّل لنا أنها بضعة قرون تمر على المرء كمرور شاحنة بينما هي عند خالقها لا تتعدى جناح بعوضة.. إنما هي بضعة محطات لك في كل منها عبرة وغاية إن تجاوزتها أنت فلن تتجاوزك، ستتخذ من أكتافك مسكنا حتى تحسن استضافتها، تلك المحطات وإن كثرت ستحمل في جوفها واحدة أخيرة عساها تكن هي المبتغى لمن أراد الخاتمة وحسن الوداع وحينها ستدرك بأنك ما خسرت يوما.. ولكن تذكر بأنك ما دمت هنا فلا زال بيدك الكثير ولا زال قلبك في استطاعته ابتلاع الدنيا.. لا زال هنالك طرق تنتظر خطواتك ونسائم قدّر لها اختلاس ثنايا جبينك.. وحده الله يعلم متى تنتهي المهمة وكيف، وحده من يبصر في نفسك ما لا تعلم ويعرف النهاية كما البداية فيبتليك بما تقدر ويجبرك بما تحب، ما دامت الستائر لم تنسدل بعد فلا زال في نصيبك فصول أخرى لا تحتاج منك سوى التسليم بحقيقة أنك أهلا لها وما عداها.. لذا لا بأس أبدا.. لا بأس"...

تمت بحمد الله